

« المحاكاة » في الأدب ، والفنون التي عنى أرسطو بالحديث عنها في كتاب الشعر . وعلى كل حال فإن هذا النص في جملته وتفصيله يضع أمامنا رأياً صريحاً يؤكد فيه الجاحظ أن جودة المعنى لا تدل على عبقرية الأديب بمقدار ما يدل عليها الشكل أو القالب الذي يصب في ذلك المعنى . وأن مهارة الأديب وقدرته على الإبداع الفني منوط على تحسين الصورة ، والتجديد في رسم الأشكال فيما أسلفنا من جهاتها المتعددة ، وتلك الصور والأشكال هي وسائل التأثير في القراء والمستمعين ، وما أقرب كلام الجاحظ في هذه العبارة المشهورة من قول « فولتير » : إن الأشياء تؤثر فينا في الأغلب من نواحي أساليبها ، أي من نواحي القوالب التي تصب فيها ، لأن للناس أفكاراً واحدة على وجه التقريب ، ولكن الأسلوب هو الذي يفرق بين كاتب وكاتب ومن كلام « فرانس » : Faguet : إن الذي يخلد الكاتب إنما هو جمال الأسلوب . ومن كلام « فرانس » : ليس الفكر ملكاً لمن يبدعه ، وإنما ملك لمن يثبتته في الأذهان (١) .

وقد يغالى ابن خلدون في نصرة ذلك الرأي حين يذهب إلى أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما في الألفاظ لافي المعاني ، وأن المعاني تبع لها ، وهي أصل ، وأن الصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر إنما يحاولها في الألفاظ . وإذا كان فولتير يذهب إلى أن للناس أفكاراً واحدة بوجه التقريب ، وإذا كان الجاحظ يذهب إلى أن المعاني مطروحة في الطريق ، فإن ابن خلدون يرى أن المعاني موجودة عند كل واحد ، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا يحتاج إلى صناعة . ولكن تأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة ، وهو بمثابة القوالب للمعاني ، فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب ، والفضة ، والصدف والزجاج ، والخزف ، والماء ، واحد في نفسه ، كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد ، والمعاني واحدة في نفسها . وإنما الجاهل في تأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ، ولم يحسن ، بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ، ولا يستطيع لفقدان القدرة عليه ( المقدمة ٥٧٨ ) .

\*\*\*

( ١ ) الجاحظ معلم العقل والأدب ٢٢٠ .